قاعدة في اعتبار السياق

تعريف السياق :

ذكر السيد محمد باقر الصدر قدس سره في تطبيقات حجية الظهور : نريد بالسياق كل ما يكتنف اللفظ الذي نريد فهمه من دوال أخرى، سواء كانت لفظية كالكلمات التي تشكّل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاما واحدا مترابطا، أو حالية كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام، وتكون ذات دلالة في الموضوع.

وقال الشيخ محمد هادي معرفة في كتابه (التمهيد في علوم القرآن) في بحث تناسب الآيات: كان القرآن نزل نجوما وفي فترات، لمناسبات قد يختلف بعضها عن بعض، وكانت كل مجموعة من الآيات تنزل لمناسبة تخصها، تستدعي وجود رابط بينها بالذات، وهو الذي يشكل سياق الآية في مصطلحهم.

وعن ابن قيم الجوزية قوله: السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظراته.

وأشار إلى السياق أيضا الشيخ محمد رشيد رضا في مقدمة تفسيره المنار، حيث قال: إن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته.

وقال الشيخ خالد بن عبد الرحمن العك في المنهج الذي يجب على المفسر نهجه: مراعاة التناسب بين الآيات، فيبين وجه المناسبة، ويربط بين السابق واللاحق من آيات القرآن حتى يوضح أن القرآن لا تفكك فيه ، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بعجز بعض .

أثر السياق في التفسير :

يرى السيد محمد تقي المدرسي أن للسياق أثر كبير في بيان الواقع العلمي للقرآن، والسبب : أن القرآن يلاحظ ارتباط آية بأخرى ملاحظة دقيقة، ولا تتلاحق الآيات ولا الكلمات داخل آية واحدة، إلا بإحدى علاقتين: علاقة علمية ، أو علاقة تربوية .

العلاقة العلمية :

إن القرآن يعكس واقع ارتباط حقيقة بأخرى، فيذكرهما مع بعض، فمثلا: يقول الله سبحانه : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾، فإن علاقة الاستغفار من الذنب بتوحيد الله علاقة واقعية تفرضها الحقيقة الربانية من جهة، والعبودية من جهة ثانية ، إذ إن العقيدة بأحدية الله توجب العقيدة بعبودية الله، وواضح أن العبد يجب أن يخضع لله .

العلاقة التربوية:

لما كان القرآن كتاب تربية، وصفات النفس ترتبط بعضها ببعض، كان القرآن المجيد يلاحق النفس البشرية بما يصلحها من التوجيهات، فإن طغت إفراطا صفة عليها عالجها بحكمة، وإن بغت تفريطا عالجها بصفة أخرى، ولا يزال يعدّلها حتى تتحول إلى نفس سوية.

ومثل هذه العلاقة في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

فإن جمل هذه الآية ثلاث: الأولى في الإنفاق، أول ما أمر الله بالإنفاق، فتوجهت النفوس إليه ، ولما كانت في خوف من التقصير في الإنفاق، جاءت الجملة الثانية تنهى عن التهلكة التي تقع إذا ترك الإنفاق، ولما كانت النفوس مفطورة على البخل، كان من الضروري ترجيح كفة الإنفاق، فقال : وأحسنوا .

والعلامة الطباطبائي يهتم بشأن السياق اهتماما كبيرا حتى صار من المكثرين فيه؛ إذ تمسّك بسياق الآيات في أرجاء تفسيره الميزان، فقد أشار إلى السياق وتأثيره في سورة النبأ فقط أكثر من عشرين موردا:

منها : رأيه في تفسير قوله تعالى: ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ حيث قال : إن المراد من النبأ العظيم هو نبأ البعث والقيامة، ويؤيد ذلك سياق آيات السورة بما فيه من

الاقتصار على ذكر صفة يوم القيامة. وقيل: المراد به نبأ القرآن العظيم، ويدفعه كون السياق بحسب مصبه أجنبيا عنه، ثم قال : المحصل من سياق الآيات الثلاث.....

ومنها: رأيه في تفسير قوله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا...﴾ إلى تمام إحدى عشرة آية فقال انه مسوق سوق الاحتجاج على ثبوت البعث والجزاء، ثم قال: السياق فيما نحن فيه سياق الوقوع دون الإمكان. أي: إن الآيات تكون بصدد بيان الحجة على وقوع القيامة ، دون النظر إلى إمكانه قط .

وعبّر العلامة جوادي آملي في تفسيره (تسنيم) عن السياق بالهدف الأقصى للآيات. حيث قال :

قد يوضح بظهور السياق أو (الهدف الأقصى من الآيات) معنى الآية، ففي هذا القسم من التفسير يتحد المفسِر والمفسَر.

وقال في موضع آخر:

قد يستمد بظهور السياق كشف الربط بين الكلمة المجهولة المعنى، والكلمة المعلوم معناها، كما في آية الغار في قوله تعالى ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ، وإرجاع الضمير في كلمتي (عليه)، و(أيده) إلى النبي صلى الله

عليه وآله بقرينة رجوع الضمائر الخمسة: (تنصروه)، (نصره)، (أخرجه)، (يقول)، (لصاحبه) .

وتعرّض لمسألة السياق الشيخ محمد عزة دروزة، فقال:

إن أكثر الفصول والمجموعات في السور القرآنية متصلة السياق ترتيبا أو موضوعا أو سبكا أو نزولا، وإن فهم مداها ومعانيها وظروفها الزمنية والموضوعية وخصوصياتها وعمومياتها وتلقينها وتوجيهها وأحكامها فهما صحيحا لا يتيسر إلا بملاحظة تسلسل السياق والتناسب، وإن في أخذ القرآن آية آية، أو عبارة عبارة أو كلمة كلمة بترا لوحدة السياق في كثير من المواقف والمواضيع، وهو مؤدٍ إلى التشويش على صحة التفهم والتدبر والإحاطة، أو على حقيقة ومدى الهدف القرآني .

ثم مثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾.

فالظاهر من الآية يدل على أن الله خالق للإنسان ولأفعاله وهو يشعر بجبر الإنسان في أعماله، وأما عند ملاحظة السياق، فيبدو أن المراد من خلق الأعمال إنما في الأصنام وصانعيها.

وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ ، الذي قال في شأنه كثير من المفسرين: إنها آية السيف، وإنها نسخت كل ما جاء في القرآن من عدم قتال غير المعتدين والمقاتلين من المشركين ، مع أن في الآية فقرة أخرى مرتبطة أشدّ الارتباط بها ومحتوية

للتعليل الرائع المعقول المتسق مع طبيعة الأمور للأمر الذي تضمنته بقتال المشركين كافة، وهي: ﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ .

أقسام السياق :

أولا: السياق الخارجي

(1) السياق العام: وهو الذي يشتمل على المفاهيم الإسلامية، والنص القرآني كاملا. وبيانه في السنة قولية وعملية.

(2) السياق الموضوعي: وهو الموقف الذي سيقت الآية الوارد بها اللفظ جزءا منه بما يمليه هذا الموقف، ويحيط به من عاطفة تؤثر في اختيارات الكلمات بناء على فهم هذا الموقف كاملا بوصفه موضوع الآية أو النص.

(3) السياق اللغوي : وهو الذي يتمثل في الألفاظ والتراكيب التي تحيط باللفظ موضع الدراسة بما هي العناصر اللغوية الأساسية التي يبدأ الفهم بها، وينبغي ألا يتناقض التفسير ودلالاتها دون وجود القرينة فيجب على المفسر في تفسيره للقرآن أن يراعي هذه السياقات ؛ لئلا يقع في الخطأ.

ثانيا: السياق الداخلي

(1) سياق الحروف

والمراد به : تنظيم الكلمات وتركيبها من الحروف التي تكون بمنزلة المواد لبنائها. وبديهي أن مثل هذا السياق مسند إلى كل متكلم خاصة ، وإلا لم يكن مجال البحث عنه.

(2) سياق الكلمات

والمراد بسياق الكلمات: هو نظم الكلمات والأسلوب القائم في تراكيبها، ومن ثم تأليف الجملة منها ، بل هي الخصائص المودعة في الجمل : من المبتدأ والخبر، أو الفعل والفاعل أو نائبه، أو الحال والتمييز. ويعبر عنه بـ(مناسبة الحكم والموضوع) .

نعتقد أن هذا النوع من النظم والسياق كان من صنع الوحي السماوي لا غير، كما قال به الأستاذ معرفة في تمهيده، وصرح به محمد الطاهر بن عاشور حيث قال: اتساق الحروف ... من رسول الله . وهو قرينة بلا شك .

(3) سياق الجمل

والمراد به : النظم الكامن في تركيب الجمل، ومن ثم تأليف الآية من تلك الجمل. وهذا هو إحدى محطات البحث في قرينية السياق. وهو حجة بشرط عدم القرينة القطعية على انفصال تلك الجملة عما قبلها وعما بعدها.

(4) سياق الآيات

والمراد به : كون الآية قرينة على تفسير الآية الأخرى، وهي حجة بشرطين: الأول : وجود الصلة والربط الصدوري بينهما، أي: نزولهما دفعة، والآخر: وحدة موضوعهما كليا أو جزئيا.

(5) سياق السور

والمراد به : ترابط السور القرآنية وتناسب بعضها وبعض.